

كوبارو: رحلة الرمز النمطي الأمثل لإكتشاف الذات

أليس يوسف

الرواية تجربة، هي رحلة بين الكاتب وشخصياته، عهدٌ بين الكاتب وفضول قراءه، لخوض التجربة ذاتها بين المتخيل والواقعي. ويمكن القول بأن هذا ليس السر الوحيد لنجاح أي رواية، فتكاثف عوامل الروي وصدى صوت الراوي ينجح بفصل القارئ عن عالمه ويرمي به في قاع عالمٍ آخر أشبه بحلمٍ يحمله إلى البحر أو إلى غابة الورق الأحمر حيث نلتقي بكوبارو.

فكوبارو بطل رواية اليافعين الصادرة عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، أرنبٌ رمادي مدلل ذو غرة سوداء غافل كما حال أغلب جيل اليافعين عن حتمية اللحظات والعالم حوله. ينعزل كوبارو في غرفته يومياً أمام تلفازه لا يربطه بالعالم الخارجي سوى تاريخ عائلي مشرف ترسمه صور البطولة والتضحية، ومحل بيع عصير الجزر الذي ورثه عن عائلته التي قضت في معركة تحرير الغابة من قبضة كازال- النمر العدو. حادثة واحدة كفيلة بأن تلقى بكوبارو على طريق تغيير قدره. ماذا يفعل كوبارو عندما يتهاوى العالم حوله باحتراق وطنه الأم؟

أجعل من كوبارو نقطة انطلاقي، وليس الروي أو اللغة، لأنه ببساطة مركز الرواية فهو مقدمة في التركيب القصصي، عنصراً فاعلاً، باعتبار أن الرواية سميت تيمناً به وانطلقت من كونه مستثنى ومبعد من مركز الحدث لبرهنة كافية بأن تجعل من تكوينه بطلاً بكل معنى الكلمة. هذه الانطلاقة السردية في التحليل الأدبي تعكس بعداً لعالم أدبي قيد التكون. وفي غمرة هذه المقدمة يرسم القارئ صورة انطباعية عن الشخص الرئيس في لعبة السرد تكون راسخة المعالم لتتكسر لاحقاً عند اكتمال الروي- حيلة أدبية ذكية بها نلتقي بأولى وجوه كوبارو الذي سيكون رمز نمطي أولي مستقل بذاته.

أبطال وظلال:

في إحدى رواياتها تفضي الكاتبة الأمريكية ويلا كارتر إلى الخلاصة الآتية عن القصص والقص " اثنتين أو ثلاثة من القصص الإنسانية جمعاء ستبقى تكرر ذاتها بعنفوان وكأنها تروى للمرة الأولى." ما تعنيه ويلا كارتر في نظرتها للقص أشير إليه سابقاً وطوّر عبر عمل عالم النفس التحليلي كارل يونغ ثم تم تبنيه أدبياً في التحليل والنقد بما يعرف بالرمز النمطي، بالإنجليزية Archetype . الفكرة السائدة وراء هذا المصطلح هي ببساطة أنه لا توجد هنالك قصة أو حبكة جديدة، بل أنماط قصص وشخصيات مألوفة تعرّف عليها البشر عبر تاريخهم القصصي الطويل. يؤكد النقد الأدبي على أن الأنماط البدائية/ الرمزية تحدد شكل ووظيفة المصنفات الأدبية وتشكل معنى النص من خلال الأساطير والحكايا، وهي الأشكال الأساسية للسرد التي يتم تجسيدها أو جعلها ملموسة من خلال الصور أو الرموز أو الأنماط المتكررة الحاملة للمعاني قبل أن تكون في بطن الرواية. وتكشف هذه الأنماط عن أدوار مشتركة بين المجتمعات العالمية تترك أثرها على القارئ، ورموز تكاد بمجرد ذكرها أن تثير في القارئ صورة ذهنية محددة يعبر عنها بلون أو

بكلمة مفتاحية فمثلا الجدة ترتبط بالحكايا وبالحكمة، واللون الأحمر كذلك في رداء ليلي الحمراء ينذر بالخطر. ويعتمد هذا التحليل على ما هو متعارف عليه وما هو ملموس ومكنون في البعد المتخيل لما يعاش حقيقة.

هنا نقرأ كويارو كشخصية كونه رمز أدبي نمطي، لا أعني بالرمز أن النص له بعد رمزي أو أن كويارو رمز لليافعين مثلا- بل أطرح هذه القراءة في الإطار التحليلي لكون كويارو شخصية مألوفة جداً، ونمط القصة مألوف جداً لربما يشبه قصة تقصها علينا إحدى جداتنا أو حكواتي وهنا موطن أول نجاح للكتاب. لا نعني بالألفة كون الكتاب ذو طابع أدب المغامرة، بل الألفة مفتاح التماهي مع النص، وألفة كويارو تأتي من كونه رمزاً نمطياً (أو ما يقرب إليه في التحليل الأدبي العربي لكلمة صورة نمطية) عن المثابر. الصورة النمطية للرواية بأكملها هي الرحلة، فموضوعة الرحلة هي نمط قصصي مألوف في السرد الروائي وفي حالة كويارو فالرحلة استرجاع أو انقاذ ما تبقى، وهنا في هذا الأسلوب القصصي يصبح من الشخصية الرئيسية البطل الأول/ الأمتل/ الأكثر ألفة، الأمر الذي يعني أن هنالك عدد من الشخوص سيكونون أبطال مساندة (كرفاق الدرب شانو وستارتر)، وهنالك ما يسمى بهذا التحليل بالظلال أو قوى البطل المعاكس الذي يشكل العلامة الفارقة التي تدفع البطل الأمتل للنجاة أو الهاوية، وفي حال كويارو أيضا لإكتشاف الذات (عملية الإنقاذ) وكما هي حال هذا الأسلوب التحليلي هنالك تلقائياً يتوقع وجود معلم أو حكيم يرسل البطل في مهمته (وانغا الأسد). ألفة هذا الأسلوب في الطرح نحتم أن وصول الرواية لنهايتها هو الناتج الطبيعي لوحدة الحدث والزمن والشخصية، وهذا النوع النمطي في السرد يفرز مخطط لنهايتين: إما البطولة أو الموت. للقارئ العادي هو انتظار طبيعي للوصول لخط النهاية وإما لقارئ ذكي- قد تكون هذه النهاية محصلة طبيعية مألوفة ومتوقعة يحس بها عند اقتراب الفصول الأخيرة.

مغامرة كويارو رحلة على مستويات عدة، رحلة صراع الخير ضد الشر، وصراع الحيوان ضد البشر وصراع الذات ضد الشعور بعدم القيمة، تتجلى هذه الأبعاد واضحة في النص وتميل أحيانا الى المباشرة سواء في الحوار بين الشخوص أو في الطرح. الأمر الذي قد يخل بالتوازن الروائي ويخرج القارئ من عالم المغامرة ليرتطم بالعالم الواقعي- وهو أمر يخالف في جوهره طبيعة العمل الروائي وبنيته، ففي المنطق الروائي لا يجدر تكرار الإشارة إلى مركزية الصراع مباشرة بل يتمكن القارئ من فهم جوهره في الإشارات التي يتركها الكاتب على الطريق. كون هذه الرواية موجهة للفتيان/ اليافعين وهي فئة عمرية فضفاضة الحدود ومختلف على أبعادها (ويتفق غالباً أنها من عمر 12-16 سنة) يزيد من فرص ذكاء القراء صغار العمر في فهم الإشارات الكتابية والرموز في الرواية.

انطلاقاً من الاتفاق على الصراع كونه عاملاً حاسماً في الروي النمطي- رواية المغامرة، لربما أكثر المشاهد التي استوقفتني كانت في فصل "بالقرب من عطار" والذي بالمناسبة يفصل فيه عنوان الفصل عن محتواه خلافاً لما ورد في الفصول السابقة والتي تلتها، رغم كون الفصل تجاه نهاية السرد الحداثي ورغم كونه الأطول زمنياً في أحداث الرواية ووقوعه في ذروة الحدث كيفية تناول الكاتب لمفهوم السجن ومختلف أبعاده والتصوير النفسي والجسدي للظروف في السجن بدت واقعية أحيانا، عدا عن أنها استعارت حالة شعورية يعتادها الفلسطيني، قد لا تكون غريبة على بعض اليافعين الذين سيصلهم الكتاب.

رغم قساوة تناول عدد من المشاهد في النص إلا أن الفصل حمل في طيه أدق التفاصيل في التناول الروائي. الملفت في قضايا الصراع في الكتاب أيضا هو تشابه بعض الشخصيات بالبشر ونزعة تقابلها وهي العداة مع البشر، الأمر الذي يشكل إرباك للقارئ بحيث لا يميز الموقف "الحيواني" من التصرفات البشرية كما وأن الهوية الصنفية للخاطفين تبقى مجهولة في جوهر النص، هل من يتسبب في الضرر للحيوانات البشر؟ لربما يبدو هذا السؤال في غير محله ولكن إرتباطه بمركزية الطرح وفكرة الصراع يثير الجدل في فهم بعد آخر لمعاني الرواية. كما ويسبب الصراع الذاتي - العداة من الحيوانات لذاتها - فقد الأمان كأسلوب حكاية يعكس لاحقاً على كل من كويارو وصديقيه شانو وستارتر.

لكل صراع حل، أو تسوية وفي كويارو بدت الحلول مفعمة بالهروب، أو تدخل العناصر الخارجية، وهو أمر ليس بالغريب عن روايات المغامرات ولا عن روايات الترميز النمطي، الهروب الروائي في السرد يتأرجح بين ما تم إغلاقه بنجاح وإقناع وما يبقى معلقاً أو سريعاً، وبسبب زخامة وسرعة الانتقال المشهدي بين هذه التفاصيل وبين الماضي والحاضر يضع بعض الزمن الروائي في خضم عدم اليقين، فالمعلوم ضمناً أن مفهوم الرحلة يأخذ وقت إلا أن الإشارة الوحيدة للزمن كعنصر مستقل بذاته تأتي في إطار زمن السجن فقط وكأن الوقت يكسب أهميته أكثر عندما تسلب الحرية.

الشخصية الأنثوية - تحضر وتغيب

نتفق إذا على أن الكاتب ذكي في بناء عالمه، ولكن استوقفتني مركزية أخرى تأرجحت في النص وهي أن الشخصيات الأنثوية شبه غائبة عن ساحة المعركة وتعمل في ظلال الأبطال الذكور في الرواية. لا أنكر أن عنصر التضحية غلب على شخصية زوجة الملك ولكن الشخصيات الأنثوية الحاضرة تعمل بصوت روائي خافت إذ ما قورن برداء البطولة التي يرتديها كويارو ورفاقه، مما يعكس بعد آخر لتكوين المعنى ليس غريباً على رواية المغامرة النمطية المثالية بحيث يحذو كويارو "ككتاب" حذو الأبطال المغامرين المحليين في القصص كنص نصيص، والشاطر حسن والمغامرين العالميين كروبين هود وبيتر بان وغيرهم، ولعل الأمر مجرد محض صدفة لا غير وبدون تخطيط فالرواية وليدة اللحظة إلا أن هذا العنصر الأنثوي يكون حاضر غائب - إن صح استعارة المصطلح الدرويشي - في عدد من روايات اليافعين الفلسطينية في أسلوب المغامرة الروائي، القالب الذي بدأت عدد من الكاتبات الفلسطينيات بكسره في رواياتهن شأن كتاب "رحلات غريبة في البلاد العجيبة" لسونيا نمر.

التدرج من العتمة للنور واكتشاف الذات

لربما يأتي التماهي بجزئيته في الكتاب إيماناً بأنه يلتزم وبشكل شبه كامل بالنمطية القصصية أي أنه بشكل عام يعكس صورة واقعية نمطية للعمل والشخص، ورغم عدم التوازن الروائي في بعض المواضع والخروج عن ما يتوقع من بعض الشخصيات في الحوار إلا أن موطن نجاح الكتاب هو التغيير في كويارو وأقرانه وترابط الشخصيات وخلفياتها التاريخية في الخروج من العتمة للنور، من الخذلان، سقوط القناع، عدم الرضى، الخوف، والخروج بكامل التجارب التي يمر بها والمحن، فذكر القائد ستانشار كمقدمة هي إنعكاس مباشر لشخص كويارو بعد رحلته ولهذا إن قرأ النص قراءة رمزية

نمطية سنجد أن رحلة استعادة المكان هي أساساً رحلة اكتشاف العمق الذاتي وأبعاد الشخصي في إطار إنقاذ الجمعي، ولربما هذا المعنى هام جداً للفئة المستهدفة من الرواية خاصة وأن فئة الياfeين في بحث مستمر عن ذاتها وعن ما يكون عالمها الذي قد يحترق أو ينهار في أي لحظة بدون إرادة، ترسيخ فكرة الأمل وأن المستحيل ممكن بالتغيير الحاصل في كوبرو يخلق فسحة أمل لدى الياfe وخاصة في فلسطين ويترك الصورة النمطية لتكتمل بالبطولة وتفيض بالخيال.